أسبوعيات نائب ٢٤ / ٣ / ٢٠٠٣

العراقيون بين الجدارة بمعجزة السماء والتعرض لجبروت النار والحديد

ناهض منير الريس

النائب عن مدينة غزة

إذا استطاع الإخوة العراقيون أن يصمدوا أياما تزيد على أسبوعين فسوف يكونون قد اجترحوا معجزة أعانتهم عليها السماء . وعند ذلك قد تستطيع النعوش الطائرة إلى أمريكا أن تجند القوى الشعبية اللازمة ، في أمريكا وغيرها ، للضغط الكفيل بوقف الحرب وانسحاب القوات الغازية المعتدية . ولكن كثافة النيران الأمريكية الهائلة ، من الجو ومن البحر ومن البر ، تجعل ذلك الاحتمال أقرب إلى أمنية يتمناها الولي الحميم أكثر ما تجعله تفكيرا مدعما بالأسباب المنطقية .

أو لعل المرء يحتاج ، لكي يظل متشبثا بتلك الأمنية ، إلى الإيمان بمشتملات كتاب عجيب يحمل عنوانا رئيسيا (موسوعة أشراط الساعة) وعنوانا فرعيا (البيان النبوي بانتصار العراقيين) . وهو كتاب من النوع الذي يلجأ إليه الناس أو يلجأون إلى القصص والأساطير المختزنة في الذاكرة الشعبية ، وذلك في الأزمنة التاريخية العصيبة ، حين لا يجدون على أرض الواقع ما يساعد على التفاؤل ، فيبحثون عن الأعجوبة وعن المعجزة . والكتاب الذي نشير إليه ينتقي من القرآن ومن بعض السنن غير الشائعة ، وكذلك من التوراة بعض نصوص سلفية يؤدي تخريجها بتسلسل معين إلى تنبؤات غيبية سياسية لم تكن في الحسبان .

ويعتمد المؤلف - وهو يحمل درجة الدكتوراة في الفلسفة من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة - على تفسير معين لآيات سورة الإسراء الخاصة بوعد الآخرة ، إذ يخلص من تأويل قوله تعالى : " وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة " ، إلى أن المقصود بهؤلاء الذين دخلوا المسجد أول مرة أهل العراق ، وذلك على أيدي نبوخذ نصر والبابليين في زمنه ، والمؤلف

يجعل من هذا الافتراض حقيقة مسلما بها ، ثم يستنتج من وحدة الفاعل بين المرة الأولى والمرة الثانية أن العراقيين هم الذين سيدخلون المسجد ظافرين في الجولة القادمة ! بل إن المؤلف يؤول أحد الأحاديث التي رواها شيخ من شيوخ الإمام البخاري هو الحافظ نعيم بن حماد في كتابه ((الفتن)) ، عن ظهور رجل يدعوه (السفياني) يحارب الروم ويبني مدينة على الفرات قديمة ، ويحول مجرى الفرات . ويصاحب ذلك حصول ذل للأمة على يد أعدائها حتى لا تمتنع عن ذل ينزل بها على حد قول الحديث المستند عليه . ثم تكون له الكرة الثانية ، وينفتح طور جديد من أطوار التاريخ .

والمؤلف يؤول نسب الرئيس صدام حسين فيطابق سلسلة نسبه وموضع ميلاده ليرجعه إلى خالد بن يزيد بن أبي سفيان . ويتنبأ له استنادا على المصادر المختارة بأن يتمكن من دخول المسجد الأقصى في موقعة فاصلة في وادي اليابس .

أما النصوص التي نشير إليها ، والتي تعزز ـ في نظر المؤلف ـ تلك النبوءة ، فهي مجتزأة من قلب التوراة ! ففي سفر دانيال نبوءة تنص على أن الأشوري ((يدخل الأراضي ويجرف ويطمو ويدخل إلى الأرض البهية)) وهي القدس .. وفي سفر أشعيا نبوءة تنص كما يلي : ((فيقطع الرب من إسرائيل الرأس والذنب والنخل والأسل في يوم واحد)) وهناك نص آخر عن آشور ((على شعب سخطي أوصيه ليغتنم غنيمة وينهب نهبا ويجعلهم مدوسين كطين الأزقة)) . ونص ثالث يقول : ((لأن للرب يوم انتقام سنة جزاء من أجل دعوى صهيون)) .

هذا هو حديث فريق من الناس اليوم . يتخاطفون الكتاب الذي اطلعنا عليه بالصدفة وعرفنا أن الناس يستقوون به في وجه ما يشاهدونه على الشاشات الصغيرة من هول النيران الأمريكية النازلة على بغداد الرشيد الغالية على قلب كل عربي ومسلم وإنسان يعرف فضل بغداد على الحضارة الإنسانية .

انقلابات قيد التخطيط

ومن أصعب الأمور على نفوس الناس أن يتصوروا إمكان هزيمة العراق ، على الرغم من المسافة الشاسعة في ميزان القوى بين هذا البلد العظيم المحاصر منذ اثنتي عشرة سنة وبين الدولة العظمى التي تحاول من واقع شعورها بالقوة وعزتها بالإثم محاصرة العالم كله والتحكم في مصائر جميع البلدان . فالعراق كبير في النفوس إلى الحد الذي لا يسهل معه تصور زواله عن الخريطة . وهو عزيز وغال إلى الحد الذي يجعله محور الآمال والصلوات .

ولست من الذين يعكفون على جمع النصوص من هنا وهناك لأستقرئها نبوءة أو استطلع إشاراتها أو أتخذ من جمع أرقام إلى أرقام أو طرحها مؤشرات نحو دلالات مقصودة . وإذا كنت لا أصدق أمثال هذه الأمور فإنني في الوقت نفسه لا أكذبها . ولكنني أشير إلى ما تمثله هذه الظاهرة من فقدان الأمل والرجاء تماما بالمجموع الرسمي العربي . وأشير - وهذا هو الأهم - إلى أن معركة العراق ليست في جميع الأحوال إلا افتتاحية المعارك القادمة في هذه المنطقة . فعندما ينجلي غبار المعركة في بغداد على أي حال من الحالين لن يطيق أي شعب عربي بقاء حاكمه الراهن على رأسه . وهذا بالطبع ما يعرفه الأمريكيون الذين سبق لهم بعد حرب النكبة عام ١٩٤٨ أن لفقوا من أجل تنفيس الشعور القومي الساخط الثائر انقلابات صادرت إمكانية تطور الأمور طبيعيا وسلمت الأمور إلى الجيوش التي أدخلت المنطقة في دورات مشؤومة من التغييرات التي لا شأن لإرادة الناس ولا لاختيارهم بها . والأمريكيون ما زالوا يعملون على اصطناع العملاء وتربيتهم وتغذيتهم في مفاصل القوة والحكم في البلاد العربية . وقد رشحت تصريحات عديدة تتهم بعض الحكام العرب وتتوعدهم بسبب (عدم ديمقراطيتهم) وبسبب عجزهم عن وضع سياسة عصرية للتعليم في بلادهم . فالانقلابات العسكرية واردة ومنتظرة في بعض البلدان . ومما يؤسف له أن البدائل قد لا تكون أفضل من الأمور الواقعة .

وعندما نتصور انقلابات الأمريكيين فعلينا أن نضعها في سياقها المعلن على رؤوس الأشهاد . ولن ينسى إلا من يريد التناسي إعلانات الأمريكيين جهارا نهارا عن نواياهم تجاه منطقتنا . وأحدث هذه الإعلانات وأشدها

وقاحة تصريح وزير خارجية أمريكا (المعدود بين رجال بوش من الحمائم !) . فلم يمض على التصريح المقصود إلا حوالي الشهر وهو ينص : " إن غايتنا من الحملة هي إعادة تشكيل الشرق الأوسط بما يناسب مصالحنا " (!) أما فحوى إعادة التشكيل هذه بما يناسب المصالح الأمريكية فوردت منذ ما يزيد عن سنتين على لسان جورج تينيت مدير السي آي إيه ، وذلك في مؤتمر واي ريفر حيث قال أمام الوفد الفلسطيني متوعدا : ((إن منطقة الشرق الأوسط بشعوبها وحدودها قابلة للتغيير)) . ومعنى ذلك أن إعادة تشكيل المنطقة تشتمل على أمرين اثنين حسب المفهوم الأمريكي :

- الأول هو تقسيم الدول العربية قطعا أصغر من القطع الراهنة .
- الثاني إزاحة شعوب عربية من أراضيها ، وإحلال شعوب أخرى محلها .

والواقع أن المرء يعجب كيف يسمح أي إنسان في القرن الحادي والعشرين لنفسه أن يتكلم بهذا الظلم كله والوقاحة المكشوفة كلها . ولكن الحضارة التي أنشأت الأفلام العارية من غير ستر لا تجد غضاضة في الإعلان عن سياساتها الوقحة الرهيبة الظالمة دون ستر !!

التأله في الأرض

والحقيقة أن الجبابرة الغزاة الذين حاربوا شعوبا أخرى كثيرون في التاريخ ، ولكن الولايات المتحدة في التاريخ الحديث هي الوحيدة التي تألهت في الأرض على هذا النحو . وليست كلمة إعادة التشكيل إلا مثالا على هذا التأله في الأرض . كما أن الولايات المتحدة التي يعرف الجميع أنها طامعة في نهب ثروة العرب في العراق والخليج والسعودية وغيرها ماضية في إذلال الأمة بالإضافة إلى نهب ثرواتها . أما حديثها عن رسالة الديمقراطية وتخليص العراق من الديكتاتورية وحماية جيران العراق من العراق فكلام لا يجوز على أتفه الناس . فما بالك على البشر العاديين ؟ وما بالك على رجال الدول ؟! وعندما يقول وزير خارجية روسيا إن الديمقراطية لا يمكن إرسالها على أجنحة صواريخ التوما هوك فإن في ذلك قدرا كبيرا من السخرية التي تظهر إلى أي حد تلعب الولايات المتحدة بأوراق مكشوفة ، وتهين نفسها

قبل أن تهين الآخرين بهذا الحضيض الذي انحدرت إليه . فالكذب يحط من قدر الناس . كذلك خلق الله الفطرة البشرية . ولن تكون استثناء من حكم الفطرة امبراطورية الأمريكيين التي جاوزت الحد الأقصى في الكذب الرسمي وفي الأطماع الفاحشة . وإذا كان المرء بعقله يستبعد المعجزة والأعجوبة فإنه لا يستبعد تدخل الإرادة الإلهية ضد أولئك الذين نازعوا الله تعالى في وحدانيته وهو الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأرادوا أن يتحكموا ظلما وقهرا في أرزاق العباد وفي أرواح العباد ولسان حالهم ما قاله الملك الظالم لإبراهيم قديما : أنا أحيي وأميت !

هل هذا الصمود الأسطوري الذي يبديه العراقيون الأبطال في وجه الآلة الحربية الأمريكية بشير بنصر أعظم ؟ أم هو الشهادة على فساد الحكام وقصور الدول الكبرى وخلو العالم من العدالة ؟!

نحن الفلسطينيين أكثر من يستشعر هذه المعاني ، لا لأننا أكثر علما ووعيا ، بل لأننا في الخندق الأول حيث يكتشف المرابطون وحدة المعركة ووحدة المصير دون أن يتثقفوا بالثقافة القومية أو يعرفوا الشعارات الوطنية .